الاستاذ هكسلي

لم نكد نوزّع الجزء الماضي من المقتطف حتى نعت الينا شركة روتر هذا العالم الكبير والاستاذ الشهير . طار نعيهُ في اقطار المسكونة كأنّهُ ملك من ملوك الارض بل قد يُنسى اسم الملوك ويبقى اسمهُ خالدًا في نوادي العلم وكتب الطبيعة

ولد في الرابع من شهر مايو (ايار) سنة ١٨٢٥ في قرية ايلنغ على مقربة من مدينة لندن وكان ابوهُ مدرساً في مدرسة هناك فقرأ فيها مبادئ العلوم ثم عكف على الدرس والتنقيب وتعلّم اللغة الالمانيّة وغاص في بحار علومها لانها اغنى لغات الارض بالكتب العلميّة ودخل مدرسة طبيّة في مدينة لندن ولم يكتفِ بدرس ما وجدهُ في الكتب وسمعهُ من الاساتذة بل كان يبحث وينقب بنفسهِ وكتب حينئذٍ رسالة في جريدة طبيّة وصف فيها الطبقة الّتي في عمد جذر الشعر فسمّيت هذهِ الطبقة باسمهِ الى الآن وظهر من ذلك الحين انهُ ميّال الى المباحث المبتكرة الّتي امتاز بها مدة اشتغالهِ بالعلم

ومارس صناعة الطب مدة وجيزة ثم انضمّ الى جمهور الاطباء الذين في خدمة الجنود البحريّة وذهب في سفينة من سفن الحكومة أُرسلت لمساحة البحار في الاقاصي الجنوبيّة فاقلع بها سنة ١٨٤٦ ولم يعد حتى سنة ١٨٥٠ . واقامت السفينة اكثر هذه المدة شرقي جزيرة استراليا وشماليها فاغتنم الفرصة للبحث في الحيوانات البحرية الّتي رآها هناك وكان يصف ما يراهُ وصفاً علميًّا مدققاً ويبعث بهِ الى انكلترا لينشر في جرائدها العلميّة فاشتهر اسمهُ بين رجال العلم وتوسّم فيهِ كثيرون سمات الفضل والذكاء فلما عاد الى البلاد الانكليزيّة انتُخب عضوًا في الجمعيّة الملكيّة وأُهدي اليهِ نيشان من نياشينها في العام التالي . ثم انتُخب استاذًا للتاريخ الطبيعي وعلم البالينتولوجيا في مدرسة المعادن الملكيّة واستاذًا للفزيولوجيا في دار العلوم الملكيّة سنة ١٨٥٤ وعُيّن ممتحناً في الفزيولوجيا وتشريح المقابلة في مدرسة لندن الجامعة

وانتظم في كثير من الجمعيّات العلميّة والتعليميّة ورأسها مرارًا ولهُ الفضل الكبير في اصلاح شأن التعليم في بلادهِ . واستعفى من مناصبهِ لما صار لهُ من العمر ستون سنة لكي لا يبقى في طريق الاحداث الساعين وراء المعالي فكانت مدة اشتغالهِ بين رجوعهِ من السفر الاول واعتزالهِ المناصب العموميّة ٣٤ سنة قضاها في البحث والانشاء والخطابة ولم يترك فرعاً من فروع علم الحيوان بل علم الحياة حتى وسّعهُ واغناهُ بمكتشفاتهِ

ومبتكراته وحلَّ كثيرًا من الغوامض في بناء جسم الانسان والحيوان وقُرن اسمهُ باسم دارون وأُوِن اشهر علماء الانكليز في هذا العصر بل اشهر علماء الارض في علم الحياة

واعتنق المذهب الداروني في تحوُّل الانواع واسباب تحوُّلها وكان اقوى انصارهِ واشهر زعمائهِ . قال من فصل كتبهُ في سيرة دارون بعد وفاتهِ ما ترجمتهُ

"اني لم اهتم بمسألة تحوُّل الانواع الأبعد سنة ١٨٥٠ وكنت حينئذٍ قد رفضت ما ذكر في اسفار موسى عن كيفيَّة الخلق مع انهُ كان راسخًا في ذهني بما علمني اياهُ والداي ومعلمي ولم يكن رفضهُ سهلاً عليَّ فتعبت فيهِ كثيرًا . لكن عقلي كان غير مقيد بقيود تمنعهُ من التسليم بالآراء الَّتي لها سند علمي او فلسفي مهما كانت فلم ارَ في نفسي حينئذٍ ولا ارى فيها الآن ما يمنعني من التسليم بخبر الخلق (على ما جاء في سفر التكوين) ولست ممَّن يقول ان الخلق كذلك ضرب من المحال ولكنني اقول انهُ يظهر لي بعيدًا عن الامكان ولا ارى على صحتهِ دليلاً في انواع الحيوان والنبات الموجودة الآن . وبمثل ذلك كنت حينئذٍ انظر الى مذهب النشوء (مذهب تحوُّل الانواع او مذهب دارون) اي لم اكن ارى ادلَّة على صحتهِ . ثم تعرَّفتُ بالمستر هربرت سبنسر وذلك سنة ١٨٥٢ وتصادقنا من ذلك الحين صداقة لم تنقصم عراها يومًا واحدًا . وقد بحثنا في هذا الموضوع وتناظرنا فيهِ مناظرات طويلة عنيفة لكنهُ لم يقدر مهما امتاز بهِ من قوَّة الحجَّة ان يصرفني عن مذهب اللا ادريَّة الذي اعتنقتهُ . وكان لي في مذهبي عذران الاول ان الادلة على تحوُّل الانواع لم تكن كافية الى ذلك الحين والثاني ان الاسباب الَّتي فُرضت لتحوُّل الانواع لم يكن شيء منها كافيًا لذلك . واني انظر الآن الى الموقف الذي كنت فيهِ حينئذٍ فلا ارى انهُ كان في وسعي ان اعتقد غير ما كنت اعتقد بهِ حينئذٍ

"ولعلَّ ذلك كان شأن كثيرين من الذين تعمهم المباحث الطبيَّة فانهم لم يكونوا يجدون دليلاً على صحة ما جاء في سفر التكوين عن خلق المخلوقات ولا على صحة تحوُّل الانواع بالقوى الطبيعيَّة فتركوا ميدان النظر ودخلوا ميدان العمل يبحثون عن الحقائق الَّتي تثبت هذا المذهب او ذاك . وكأنَّ مقالات دارون وولس الَّتي نُشرت سنة ١٨٥٨ وكتاب دارون الذي نشر سنة ١٨٥٩ كانت كصباح رآهُ رجل سائر في ليل بهيم فاهتدى بهِ الى طريق مطروق سواء كان طريق بيتهِ او طريق غيرهِ . وهذا الطريق هو ان الموجودات الحيَّة وجدت انواعها بالقوى الَّتي يمكن ان يثبت فعلها الآن في الطبيعة فليس على المرء ان يعتمد على الاراء والمذاهب النظريَّة بل ان ينظر الى الحوادث الَّتي يمكن

ان ترى وتتحقق . فجاءنا كتاب دارون اصل الانواع بالضالة التي كنا ننشدها

"وقبل ان نُشر هذا الكتاب بسنة كنت انا وكثيرون غيري لا ندري كيف نعلل خلق الانواع اذا اغفلنا الخبر الذي ورد عن خلقها في سفر التكوين فلما نُشر الكتاب وطالعناهُ عجبنا من غفلتنا وعدم اهتدائنا الى حل هذه المسألة بنفسنا . ولعل اصحاب كولمبوس لاموا انفسهم مثلنا لما رأوهُ يكسر البيضة ويوقفها على رأسها . فان امر التغيُّر في الانواع ومنازعة البقاء وموافقة الاحوال كل ذلك كان من الامور المعروفة ولكن ما من احد ظن انها الطريق لحل مسألة تولُّد الانواع الى ان اتى دارون وولس وبدَّدَا الظلمة ونُشر كتاب اصل الانواع فكان مصباح الهداية " انتهى

ولما اهتدى الى المذهب الداروني اي الى القول بان انواع النبات والحيوان تولَّد بعضها من بعض بالاسباب الطبيعيَّة ٱلَّتي لم تزل تفعل بها وتنوِّعها حتى يومنا هذا اقتنع بهِ حالاً واخذ من ذلك الحين يكتشف الادلة الكثيرة على صحتهِ وينشئُ المقالات الضافية في شرحهِ ولا سيما في ما يتعلق منهُ بالحيوانات الفقريَّة لكن اكثر مقالاتهِ نُشر في نشرات الجمعيَّات العلميَّة ٱلَّتي قلما يطالعها الجمهور

واعتاز على اكثر العلماء بل على اكثر الكتَّاب والخطباء بشدة المعارضة وسهولة العبارة ولو كان الموضوع من اعوص المواضيع العلميَّة فهو كصديقهِ الاستاذ تندل من هذا القبيل تقرأُ خطبهُ العلميَّة كانك تقرأُ رواية فكاهيَّة في سلاسة عبارتها وحسن سبكها وجلاء معانيها . وكان يخطب على العمال في المواضيع العلميَّة فتتجلى لهم اسرارها حتى تكاد تلمس بأيديهم

وهو اول من اطلق مذهب النشوء على الانسان فقال انهُ حلقة من حلقات الحيوان واقام الادلة على ذلك قبل ان نُشر كتاب دارون في اصل الانسان بعشر سنوات . وهو الذي قال بتولد الفرس من حيوان آخر في كل قائمة من قوائمهِ خمس اصابع وانبأ بوجود آثارهِ قبل ان وجدت فلما وجدت جاءت مؤيدة لقولهِ

وبحث في علاقة الدين بالعلم ولهُ في ذلك مقالات ضافية ومناظرات عنيفة مع غلادستون ودوق ارجيل والدكتور وايمن وغيرهم من كبار العلماء وفطاحل رجال الانشاء. واقوالهُ كالسيوف الماضية تقطع حجج الخصم وتسدُّ في وجههِ المسالك وهي شديدة الوطأة على غير الذين يذهبون مذهبهُ . وكثيرًا ما يزدري خصومهُ ويرشقهم بكلام احدّ من السهام ولا سيما اذا حرَّفوا اقوالهُ او تظاهروا بشيءٍ يحسبهم براءً منهُ ولكنها كثيرة

النكات البديعيَّة والمذاهب الكلاميَّة فلا يملُّها القارئ مهما غمض موضوعها . وقد اتفقت الآراء على انهُ بطل الداروينيَّة المجرَّب وعذيقها المرجب وحامي حماها بسيف الحجة والبرهان وبلاغة العبارة وحسن البيان

وقد ادَّعى البعض انهُ معطِّل وهو ليس كذلك لان التعطيل يقتضي نفي الخالق بدليل ومعلوم انهُ لا دليل ولا شبه دليل على نفي الخالق فكيف يصح ان يرشق مثل هكسلي بمثل هذهِ البدعة وهي ضدكل ما قالهُ وكل ما علم بهِ على خط مستقيم وانما مذهبهُ الحقيقي الاقرار بجهلهِ ما لا يعلمهُ فالامور ٱلَّتي يعلمها يقول اني اعلمها والامور ٱلَّتي يجهلها يقول اني اجهلها . ومن هذا القبيل حكمهُ على وجود الخالق فانهُ يقول انهُ لا دليل على نفيهِ ولا على وجودهِ وان الادلة ٱلَّتي اقيمت على وجودهِ لا تثبت وجودهُ والاَّ اثبتت وجود الهة الهنود والهة الصينيين والهة المصريين والكلدانيين كما تثبت وجود اله الكتابيِّين لأنَّ هذهِ الادلة كلها من نوع واحد

ولا ندري كيف يسلم عقلهُ بوجود اشياء كثيرة ممَّا يحكم بوجودهِ من آثارهِ فقط كالاثير والنار التي في جوف الارض ولا يسلم بوجود الخالق الازلي الذي منهُ ولهُ وبهِ كل الاشياء . لكن الاعتقاد بالهٍ روحي مجرَّد عن المادَّة والصفات المادية لاينطبق على ما يعتقدهُ كثيرون من الذين ينسبون الى الله الصفات البشرية كالبغض والمكر والانتقام ويقولون انهُ يدين ورجلين وعينين ونحو ذلك فسواء عندهم قال انهُ لا يعرف دليلاً على وجودهِ او قال انهُ الهٌ روحي مجرَّد عن المادَّة فهو في الحالين معطِّل في عرفهم

وكان غرضهُ الاول والاسمى نشر الحقائق العلميَّة مجرَّدة عن غواشي الاوهام وقد قال في هذا الصدد ما ترجمتهُ

" غرضي الاول ان اسعى بكل جهدي في زيادة المعارف الطبيعيَّة وفي الحث على استعمال اساليب البحث العلمي في كل المسائل ٱلَّتي يهتم بها نوع الانسان بناء على الاعتقاد الذي نما فيَّ بنموي وقوي بازدياد قوتي وهو انهُ لا راحة للناس ممَّا يلاقونهُ من العناء الاَّ في الصدق قولاً وفعلاً وفي مقابلة العالم كما هو اذ يخلع الانسان الثوب الذي البستهُ اياه ايدٍ تظاهرت بالتقوى لتخفي ما تبطن من الشرور . وعلى هذه النيَّة اخضعتُ كل مطمع في الشهرة العلميَّة ٱلَّتي كان يمكنني ان اطمع بها لغايات أُخرى كتعميم العلوم وترقية التعليم العلمي وللخصومات الكثيرة والمناظرات الطويلة في مذهب النشوء ولمعارضة اهل النحرة المذهبيَّة التي هي العدو الالدّ للعلم . واني واحد من كثيرين جاهدوا هذا الجهاد وسواء

عندي ذُكرتُ بذلك او لم اذكر " انتهى

وكل مَن قرأ شيئًا من كتاباتهِ او ممَّا اثرناهُ عنهُ في المقتطف يعلم انهُ نال ما سعى لهُ ولم يمت حتى رأى علماء الارض وعظماءها من ملكة الانكليز وابنها ولي العهد الى اصغر عامل في مناجم الفحم يقرُّ بفضلهِ ويعترف لهُ بانهُ افاد العالم ماديًّا وادبيًّا فوائد لا تقدَّر

وقد أُصيب بالنزلة الوافدة في شهر مارس الماضي وتبعها اضطراب في رئتيهِ وكليتهِ فتوفي يوم السبت في التاسع والعشرين من شهر يونيو الماضي وخلف زوجةً وثلاثة بنين واربع بنات . ودفن في الرابع من يوليو (تموز) وسار في جنازتهِ كل علماء الانكليز مثل كلفن وفوستر ولستر وسبنسر ولكير وروسكو وفرنكلند وغلادستون ونواب الجمعيَّات العلميَّة كلها وصلى عليهِ القس لولن دافس . وسيقام لهُ تذكار في دير وستمنستر وتمثال في متحف التاريخ الطبيعي مع دارون وأُوِن

تاليف الكتب ورواجها

من الناس من يأتيهِ الغنى من حيث لا يدري لا بتعب ولا بكدح ومنهم من تأتيهِ الشهرة عفوًا لا لجد ولا لاستحقاق لكن هذا وذاك من النوادر ألَّتي لا يُبنى عليها حكم والحكم الثابت المقرَّر هو ان الغنى والشهرة ينالان بالكد والجد . والنجاح ثمرة التعب ولا بدَّ دون الشهد من ابر النحل . لكن الجد والاجتهاد لا يغنيان شيئًا اذا لم يوضعا في موضعهما او اذا لم تكن احوال الزمان والمكان مناسبة لها

وقد اطَّلعنا الآن على سيرة كتاب ألَّفهُ شاب انكليزي اسمهُ « كد » فكان لهُ اعظم وقع في النفوس مع انهُ يبحث في كيف نشأت الهيئة الاجتماعيَّة وهو مبحث فلسفي قلما يهتمُّ الجمهور بمطالعتهِ . لكن العناية ألَّتي بذلها المؤلف في تأليفهِ والوسائط ألَّتي استخدمها لانتشاره واستعداد الشعب الانكليزي خصوصًا والشعوب الاوربيَّة عمومًا لمطالعة المباحث العلميَّة والفلسفيَّة روَّجتهُ كما تروج القصص والروايات واليك بيان ذلك

شرع المستر كد صاحب هذا الكتاب في تأليفهِ سنة ١٨٨٦ بعد ان استعدَّ لهُ سنين كثيرة فاتمَّهُ سنة ١٨٩١ ولا تسأل عمَّا عاناهُ من التعب والمشقة في جمع موادهِ وتبويبها وتنسيقها مدة خمس سنوات وكان في غضونها يجدُّ ويكدح في اكتساب المعيشة ولم يشرع من فورهِ في نشرهِ وارسالهِ في الافاق بل اقام خمس سنوات اخرى ينقحهُ ويهذبهُ